نافذة على الجنّة.. باب على الجحيم

قصة: نيروز مالك

على هامش حلم «الرّابعة والرّبع» القديم سأسجّل تفاصيل الحلم الجديد الّذي بات يتكرّر في حياتي بعد أن مضى كل واحد منّا، أنا و.. ن، في طريق. أذكر يوم جاءتني والدّمع في عينيها وقالت لي: «لقد هدّدني أهلي لا بقتلي فقط، وإنّما بقتلك أيضاً إن لم نضع حدّاً لقصّة حبّنا!»

ظلّت.. ن، تشهق طويلاً وهي تبكي ثمّ قالت: «فأنا حريصة عليك أكثر من حرصي على نفسي. لو كنت متأكّدة من أنّهم (تقصد أهلها) سيكتفون بقتلي لما وافقت على الزّواج من ذاك المخصيّ الّذي لا يعرف كرامة لنفسه». ثمّ تابعت بعد أن جففّت دموعها: «أنت يجب أن تعيش يجب أن لا...» وأجهشت ببكاء مرّ طويل...

في تلك اللّيلة غصت في نوم عميق رغماً عنّي كان أشبه بالنّوم الّذي غرق فيه بطل قصّة «سماء منخفضة». ثقل رأسي تماماً كأنّني شربت عشرات الحبوب المخدّرة. شدّني ثقل النّوم إلى الأسفل فانزلقت رويداً رويداً إلى أعماق الحلم رغماً عنّي كما قلت... حتّى اختلط عليّ الأمر. قلت لنفسي هذا ليس بحلم، إنّما هو مجرّد أضغاث ستنقضي عندما أفتح عيني على نور شمس الصّباح! ولكن ماذا وجدت أمامي عندما فتحت عيني؟ لقد وجدت العجب، لأنّ الحلم الّذي رأيته في اللّيل أثناء نومي الثّقيل، انقلب إلى كابوس في النّهار. كان كابوساً بعدّة وجوه معلّقة إلى سقف غرفتي، تمدّ لي ألسنتها القرمزيّة بتشفٍّ كأنّها تقول لي: لن تفلت في اليقظة منّا أيضاً! سنكون معك ما حييت!

طبعاً كنت مستغرباً من سمات الوجوه المعلّقة بسقف غرفتي! ماذا فعلت حتّى يتكرّر هذا الكابوس المزعج في حياتي؟

ألوي عنقي وأقول بعد أن أمطّ شفتي: لم أفعل شيئاً سوى أنّي أحببت.. ن. ولكن رغم قولي هذا واعترافي بالحبّ الّذي أكنّه لـ.. ن، الّتي كانت ـ ومازالت ـ غيمة تظلّل حياتي، أراهم على أطراف الحلم جالسين بكلّ أسلحتهم يوقدون النّار رغم أن الفصل كان صيفاً، في أشدّ أيّام تمّوز حرارة وتوهّجاً! كانوا يهزّون رؤوسهم وهم يحرّكون النّار بعيدان من خشب الزّان. وما إن تلتهب حتّى يلقوا بها في النّار فتتأجّج بضراوة، ثمّ يتناولون عيداناً أخرى ليذكوا بها النّار من جديد.

أرى ابتسامة هازئة على وجوههم وهم يقولون بصوت واحد: عندما أحببت..ن، كان الفصل شتاء. كان في شهر كانون الآخر. كان الثّلج يغمر الدّنيا. لذا ـ يقول أكبرهم سنّاً ـ توقّفت فصول السّنة بالنّسبة لنا عند فصل الشّتاء. لن نحسّ بمضيّه وقدوم الرّبيع إلاّ في حالة واحدة فقط.

أسألهم بتلهّف: ما هي؟

يجيبون وهم يذكون النّار: عندما نأخذ بالثّأر!

أستغرب. أسأل: الثّأر؟ ثمّ أضحك وأقول لنفسي: إنّه مجرّد حلم..

لذا أعود وأتابع أعمالي اليوميّة العاديّة. أقرأ. أكتب. أرسم. أستمع إلى الموسيقى حالماً بلقاء.. ن لأمارس معها الحبّ. وأضحك من نفسي عندما أمدّ يدي إلى جانبي فلا أجد على فراشي سوى ما تركَتْهُ من ذكريات وبقايا عطور وبعض الشّعرات من شعرها الكستنائي الطّويل.

أقوم لأشغل نفسي عن الّذين يشحذون السّكاكين ويعبّئون البنادق أو يثبتون البلطات على خاصراتهم ويضعون المديات كالقراصنة ما بين أسنانهم وهم يلقون بأنفسهم في الماء يريدون الوصول إليّ سباحة..

ألوي شفتي باستغراب وأقول: ماذا فعلت حتّى يرغبوا في هذا الانتقام المجنون؟ يضحكون بسخريّة وهم ينظرون إليّ، ثمّ ما يلبث أحدهم أن يقول: يا إلّهي كم تبدو بريئاً؟، ويقول آخر: كفاك تظاهراً بالبراءة..

ويقول ثالث: أنت أشبه بذاك الّذي يقتل القتيل ويمشي في جنازته!

ويأمر رابع: دعوه ليعيش أوهامه بالبراءة إلى يوم نفصل رأسه عن جسده..

أمدّ يدي إلى رقبتي، لماذا يريدون فصل رأسي عن جسدي؟ لماذا؟

عندما كنت أستيقظ أظلّ فترة طويلة أفكّر بأقوال الّذين رأيتهم أثناء نومي وهم يوقدون النّار السّوداء، يقصفون أغصان الأشجار الخضر. يرمون بأوراقها إلى النّار. يأمرون كساحرة بارعة خرجت لتوّها من الغابة الحجريّة: اشتعلي أيّتها الأوراق واضطرمي أيّتها النّار!

أستغرب.

التفت حولي فلا أرى أمراً من أمور الحياة غير عادي، فأطمئن وأرتاح. ولكنّي، أنا الّذي قرأت كثيراً من الكتب، وبخاصّة كتب «فرويد»، أتساءل: ما علاقة الحلم هذا بحياتي وبسلوكي؟

اضطرّني هذا السّؤال إلى التّمعّن والبحث في أطراف حياتي اليوميّة المعيشة. فلم أجد فيها سلوكاً شاذّاً يستوجب التّوبة والغفران.

* * *

عندما التزمت الصّمت، ظلّت.. ن تنتظر أن أتابع ما كنت قد بدأته من

الحديث، ولكنّي لم أرغب في ذلك. كنت أرغب في أن أتأمّل عينيها الخضراوين فقط.

ابتسمت لها وقلت: هل تعلمين أنّ رامبو، كانت له حبيبة بعينين بنفسجيّتين؟

رأيت دهشة على وجهها الجميل فحرّكت رأسها عدّة حركات وكأنّها تستنكر ما قلته. فتابعتُ وأنا أتأمّل شعرها الطّويل الّذي اهتزّ وتطاير على أثر حركات رأسها إلى اليمين وإلى اليسار: لا يمكن لفتاة أن يكون لها عينان بنفسجيّتان! ثمّ أضفت قائلاً، وأنا أغمض عينيّ حالماً: لو كنت شاعراً مثل رامبو لما وصفت عينيك بغير لونهما الأخضر.. وتضحك.. ن معي.

رمت رأسها على صدري. أمّا أنا فأضمّها بيدي وأنظر إلى النّافذة الّتي تطلّ بنا على الجنّة... أقول: صحيح أنّها نافذة ضيّقة ولكن نستطيع أن نرى عبرها الجنّة بكاملها. نتأمّلها ونحن نحلم..

أتنهّد وأقول لها: على ما يبدو لم يبق لنا في هذه الحياة سوى الأحلام. ثمّ أتابع وأنا أتذكّر وجوههم بانكسار: حتّى الأحلام يحاولون أن يحرمونا منها.

تبتسم بأسى وتقول: حتّى الحلم لم يعد ممكناً أن نعيشه! ثمّ تتابع: انظرْ إليهم... وأنظر.

أراهم يبحثون عنّي. يسألون الّذين يعرفونني أو الّذين سمعوا عنّي شيئاً ما. فكان بعضهم يقدّم لهم معلومات صحيحة، وآخرون يقولون: لا نعرف عنه شيئاً. ثمّ يهربون منهم وهم يتساءلون: متى ستختفي سحناتهم من حياتنا؟

يهزّ الرّجال المعلّقون بحلمي رؤوسهم ويقولون: لن تفلت من يدنا! نحن مئة أخ، لابدّ لواحد منّا أن يعثر عليك في شارع ما أو زقاق... وعندما يتمّ هذا الأمر، فإنّك لن ترى النّور بعد ذلك أبداً. ويضيف آخر: لن تجد رأسك في مكانه أبداً!

أحسّ برعب وأنا أنظر إلى رأسي الّذي سقط عن كتفي وتدحرج أمامي كأنّه يدلّني على الطّريق المؤدّية إلى.. ن، فأضطّر أن أستيقظ وأعود لأسأل: ماذا فعلت حتّى تلاحقني هذه اللّعنة في يقظتي ومنامي؟

أشعر بخوف بارد فأمدّ يدي وأضعها تحت رأسها، وأحاول أن أستمدّ القوة منها. تلفّني وهي ترمي شعرها الطّويل على الوسادة وتقول: قبّلني..

أقبّلها، ثم أهجع. ولكنّي ما ألبث أن أحسّ بروحي تتصاعد في نفسي وتحاول أن تطير من بين أصابع يدي، فأقبض عليها وأعيدها إلى داخل جسدي عبر الجروح الّتي تركتها سكاكينهم في جسدي، وأقول: لن أموت مهما حاولوا قتلي!! ثم أنكفئ على نفسي وأبكي بين يديها، أطلب منها الرّحمة. ثمّ أذهب أصف لها ما أراه من النّافذة المطلّة على الجنّة، أقول: لا تستطيعين تخيّل المكان، فلا شجرة، حتّى لو كانت ذاوية، ولا تربة. إنّ عدن فوهة بركان خامد مليئة برمل البحر. إنّك لا ترين إلاّ الحمم والرّمل في كلّ مكان. هذه الّتي لا تنبت أضأل نبت، وهي محاطة برمال الصّحراء...

أرفع رأسي إلى الأعلى. أحاول أن أرى على حدود عينيها الخضراوين ذؤابات شعرها وحياتي الشّاحبة... فأراهم يشحذون سكاكينهم ويقول بعضهم لبعض: هذه المرّة لن يفلت من أيدينا!

* * *

أستيقظ. أسأل نفسي: لماذا يطاردونني هذه المطاردة المجنونة؟ فأنا لم أقتل أحداً منهم، أو أُسْئ إليهم بكلمة، بل أنا لا أعرفهم.. ودليلي على ذلك أنّني ما إن أفتح عيني حتّى أنسى سحناتهم تماماً!

أسمع صوت أحدهم يأتيني من بعيد: ولكنّنا لم نَنْسَ سحنتك الّتي يجب أن نسحقها لك!

أستغرب.

أسأل: لماذا؟ فأنا لم أمسّ إنساناً بسوء، لم أرفع يدي على إنسان في حياتي.. ثمّ.. ثمّ.. إنّي.. أنا الّذي رُفعت الأيدي عليه. أنا الّذي صفعتني الأكفّ. أنا الّذي جُلد جسدي بسوط من عصب الثّور!

ثمّ ما ألبث أن أضمّ بساعدي خاصرة.. ن العارية، أميل على كتفها لأقبّل البقعة الحبريّة الّتي على الظّهر بجانب ساعدها. ثمّ أميل على كتفها الثّانية لأقبّل الشّامة البنّيّة الّتي تحت ساعدها على الظّهر وأقول: أحبّك. ثمّ أذهب مكرّراً الكلمة عشرات المرّات. بينما هي تنظر إليّ وتقول: ما أنت إلاّ مجنون. ثمّ تحاول أن تدفعني عنها بدلع عندما أزحف بشفتي على كامل ظهرها لأقبّل البقعتين الورديّتين المنداحتين على جلدها الأسمر العسلي وهي تقول: كفاك «زعرنة»... ثم تقبّلني قبلات نشوى حارقة، حتّى إنّها توغل لسانها في داخل فمي وهي تتأوّه وتشدّني إلى نفسها بقوّة...

عندما أقوم إليها لأطفئ النّيران في جسدينا، أراهم يمرّون بيني وبينها. يضحكون بشماتة، لأنّهم يستطيعون إطفاء نار الشّهوة وهي في أوجها في عظامي وعظامها. يقولون: أتسأل بعد هذا، لماذا نطاردك؟ ثمّ يتابعون: انظر إلى نفسك في المرآة لتعرف السّبب الّذي من أجله نطاردك!

أبتعدُ عن.. ن. أسألها: أعتقد أنّ علينا أن نشتري مرآة!

تسألني: لماذا؟ أجيبها: لأرى نفسي فيها وأنا أتوغّل فيك كما تتوغّل السكّين ما بين اللّحم والعظم..

تبعد نفسها عنّي وهي تقول: يا لهذه الصّورة الفظيعة الّتي تذكّرني بها...

أقول لها: هي ليست في خيالي. إنّما من خيالهم. خيال الّذين يطاردونني في يقظتي ومنامي..

أحسّ بتحرّر نهديها عن صدري وساقيها عن ساقيّ. وتبعد فخذي عن فخذها المعلّق في الهواء قبل أن أصل إلى ذروة نشوتي. تبعدني عنها. ثمّ ما تلبث أن تشدّني إلى نفسها متأوّهة قائلة: لماذا تبتعد؟ أضحكُ من ملعنتها فأعود لألتصق بجسدها النّحيل من جديد.. ولكن التصاقي بها لا ينسيني سحناتهم إلاّ في اللّحظة الّتي ينفجر فيها النّبع من قلب الصّخر وينسكب الماء على دفقات متتابعة، حتّى أهدأ وتهدأ هي. أرتخي فوقها، فترتخي تحتي.. وننام. ولكنّي قبل أن استغرق في النّوم

ويدي تحت رأسها ويدها تحت رأسي والأخرى فوق صدري أراهم يقتربون منّي، يمطّون شفاههم ويقولون: لن نسمح لك..

* * *

ألقيت بالقلم فوق الأوراق مكتفياً اللّيلة بما دوّنته لأنّني سأراجع غداً، في الصّباح، طبيباً في علوم النّفس والأمراض العصبيّة. هذا ما اتّفقنا عليه، أنا و... ن، بعد أن وصلت بي الأمور إلى درجة لا يمكن إهمالها. فقد أخذ الّذين أراهم في منامي يظهرون أيضاً في يقظتي.

وقبل أن أصل إلى هذه المرحلة من حالتي، لابدّ لي أن أتكلّم عن المرحلة الّتي سبقتها. قلت: كنت أراهم في حلمي ولكنّي عندما أستيقظ كان يختفي كلّ شيء، يختفون من وجودي ولا يظهرون إلاّ في السّاعة الّتي أغمض فيها عيني. لذا حاولت أن لا أنام إلاّ أقلّ ما يمكن.. وكان من جرّاء سهري المتواصل هذا أن انتفخت أجفاني والتهبت أطرافها واحمرّت عيناي.. وها أنا، كما ترون، لا أنام ليلاً ولا نهاراً!

ولكن المحزن حقّاً في أمري هو أنّني بدأت أراهم حولي بعد أن قضيت ثلاثة أيّام بلياليها دون نوم. كنت أدرّب نفسي على عدم النّوم، أو النّوم بصورة متقطّعة. ففي صباح اليوم الرّابع رأيتهم يعبرون الشّارع أمامي، يقفون أمام النّافذة الّتي أقبع وراءها وهم يستظلّون بفيء شجرة التّوت الّتي أمام نافذة غرفتي السرّيّة. إنّهم بانتظاري..

سألتُ.. ن عندما دخلت عليّ: هل رأيتِ أحداً ما قرب الشّجرة؟

أجابت: أعتقد..

سألتها: كيف عرفتهم؟

أجابت: من وصفك لهم. لقد ميّزت فيهم الزّعيم، لأنّ أوصافك له كانت مطابقة تماماً لواحد منهم. كان نائماً تحت شجرة التّوت. وأمّا البقيّة فكانوا يلعبون «الضّاما» كأنّهم بانتظار أحد ما!

كان لابدّ من أن أهزّ رأسي وأقول: لن أخرج من عزلتي. لن أدعهم يظفرون بي، سأبقى في هذا البيت السّرّي أمارس فيه نشاطي وحياتي... ثمّ، واحدة من اثنتين: إمّا الموت دون أن أمكّنهم منّي، أو أن يذهبوا عنّي بعد أن يعترفوا ببراءتي...

مدّت.. ن يدها إلى وجهي وقالت: أنت تفسّر الأمور بشيء من المغالاة!

قلت لها: كيف؟

قالت: منذ شهر وهم يلعبون «الضّاما» تحت الشّجرة، ينامون، يأكلون، يضحكون كأنّهم قوم من غجر لا بيت لهم ولا مأوى سوى الشّوارع والبريّة!

قاطعتها: هذا صحيح. ولكنّك لم تحدّقي إلى عيونهم النّاريّة، لم تسهري معي طوال أيّام ولياليٍ لتري أيّ نار في محاجرهم، أيّ خبث يطلّ من جباههم!

قاطعتني وهي تضع يدها على فمي وتقول لي: كفاك حديثاً عنهم. يميناً لو استمررت في الحديث، ستقول عنهم، هاهم ينحدرون إليك من السّقف أو عبر مواسير المياه المختفية في الجدران!

قاطعتها قائلاً: كأنّك معي. بشرفي كلّ ما قلته كان صحيحاً. فهم منذ ليلتين قد تسلّلوا إليّ عبر النّافذة، وبعضهم تدلّى من السّقف، وآخرون خرجوا من المواسير مع قطرات الماء المتساقطة من الصّنابير.

قالت.. ن: ولكنّك ماتزال عائشاً على وجه الأرض. تكلّمني وأكلّمك.. لماذا لم يقتلوك إذن؟ ضحكتُ لها وقلت: ماذا؟ ألم تري موتي؟ ثم تابعت: أنا ميّت حيّ يا...

تساءلت.. ن باستغراب: أيّ موت تتحدّث عنه؟

أطرقتُ وقلت لنفسي: واحدة من اثنتين، إما أنّي قد جننت، أو هي الّتي فقدت عقلها. رفعت رأسي وأخبرتها برأيي هذا. فأجابت: ما تقوله صحيح مئة بالمئة!

إذن؟؟

أجابت: علينا أن نراجع طبيباً نفسيّاً يعالج أعصابنا كِلَيْنا.

قلت لها: لا مانع لديّ.

قالت: لا بأس. ليكن موعدنا غداً..

هززت رأسي موافقاً.

ساد صمت بيننا. لم أعرف بِمَ تفكّر ولكنّي لمست في نظرتها إليّ نظرة المحبّ الولهان. فسألتها: أعتقد أنّك قرأت قصّة «الرّابعة والرّبع»؟

هزّت رأسها بالإيجاب. ثمّ أطرقت فانسكب شعرها الطّويل حتّى غطّى وجهها، ثمّ رفعته إليّ عالياً تنظر إليّ فرأيتُ دمعتين عالقتين بأهدابها..

كنت في تلك اللّحظة ـ لحظة رفع رأسها وانشقاق شعرها على وجهها الجميل، وانزياح خصلاته عن عينيها الخضراوين ـ كنت في تلك اللّحظة أودّ أن أقول لها: أحبّك. ولكن ما رأيت من الدّموع في أطراف عينيها وتحت أهدابها، أوقفني عن بوحي ذاك. فسألتها بصوت مخنوق: أراك تبكين. ما بك؟

أجابت: لا شيء.

أمسكتها من كتفيها وشددتها إليّ ألثم الدّمع عن عينيها، وأنفاسُها الحارّة تدغدغ شعر صدري، وهمست من خلال شعرها: أحبّك..

قالت، بعد أن مسحت دموعها: عليك أن تنام، لأنّنا غداً، في الصّباح سنذهب إلى الطّبيب، يجب أن لا نذهب إليه وأعصابنا تالفة..

أجبتها: معك الحق.

* * *

في الصّباح كانت.. ن قد سألت عن طبيب مختصّ بأمراض الأعصاب فأشاروا عليها بأفضل واحد منهم في المدينة. ذهبنا إليه معاً...

ولكن قبل الحديث عن وصولنا إلى العيادة وما جرى لنا مع الطّبيب، لابدّ من الحديث عن الطّريقة الّتي خرجتُ فيها من البيت دون أن ألفت نظر الّذين كانوا يلعبون «الضّاما» قرب شجرة التّوت. خرجنا دون أن ينتبه إلينا أحد، كما تخرج الشّعرة من العجين. لبستُ ثوباً لامرأة عجوز، ووضعت عصا عقداء في يدي، واحنيت ظهري حتّى أصبحت

أشبه جدّة تمسك بيدها إحدى حفيداتها وتقودها عبر الشّارع. . .

وما إن غابوا عن أنظارنا حتّى عرجت و. . ن إلى بيتها فنزعت عن نفسي ثياب الجدّة، ونحن نضحك ونقول: لقد خدعناهم. ولمّا كان موعدنا مع الطّبيب في السّاعة الثّامنة مساء، والسّاعة الآن تشير إلى السّادسة والنّصف، فقد جلسنا نتحدّث ونثرثر. . .

كان الطبيبُ يقطن في عمارةٍ قديمة تقع على أطراف المدينة. سألتها عن أسبابِ توجّهها إلى هذا الطّبيب المتوحّد مع نفسه في هذا المكان النّائي البعيد عن المدينة؟

أجابتني: لأنّه أفضل طبيب نفساني في المدينة.

قلت لها معلّقاً: هم م م. .

وصلنا إلى العمارة، وكم كانت دهشتنا كبيرة عندما قرأنا على بطاقته أنَّ عيادته تقع في الطّابق الأوّل. وأمّا ما قرأناه في اللّوحة المثبتة على مدخل البناية فيشير إلى أنّ عيادته تقع في الطّابق العاشر.

قلت: أي طابق عاشر هذا والبناية كلّها لا تتعدّى في ارتفاعها خمسة طوابق؟

قالت: لا بأس. سنتبع السّهم كما تشير اللّوحة فنصل إلى عيادته، سواء كانت في العاشر أو الأوّل كما هو مدوّن في بطاقته!

وبدأنا الصّعود وعيوننا معلّقة بالسّهم، نذهب إلى حيث يسير. . . وبعد أن قطعنا مسافات طويلة وعدداً كبيراً من درجات السّلّم أوصلنا السّهم إلى طابق لا نعرف إن كان العاشر أو الخامس أو الأوّل. . . وكما قالت ن: المهم أنّنا وصلنا إلى عيادة الطّبيب.

دخلنا العيادة ـ كانت خالية تماماً من المرضى، لا يوجد فيها سوى امرأة عجوز بشعر أبيض منكوش وحاجبين غليظين وشفة مشرومة كشفة الأرنب. سألناها إن كان الطّبيب موجوداً؟

أجابت: نعم. ثمّ سألتْ: هل أنتما على موعد معه؟

أجبناها: كلاّ. .

قالت الممرّضة العجوز: آسفون. الطّبيب لا يستقبل سوى الّذين هم على موعد مسبق معه!

شعرت بغضب ولكنّي شعرت في الوقت نفسه براحة. فقلت لـ. . ن: هيّا بنا نعود. لم تردّ عليّ، بل توجّهت بسؤالها إلى الممرّضة العجوز: ما معنى المواعيد المسبقة والعيادة كما أرى خالية وخاوية إلاّ من خيوط العناكب والغبار والملاط المتساقط من السّقف؟

ابتسمت العجوز بخبث وأجابت: يقيناً أنت المريضة، لا هو؟

عدت وكرّرت قولي لـ. . ن: هيّا. دعينا نذهب.

ظلّت. . ن مسمّرة في مكانها وتابعت تجيب الممرّضة العجوز: ليس مهمّاً من يكون المريض. إنّما سألتك: ما معنى المواعيد المسبقة والعيادة خاوية تصفر فيها الرّيح؟.

ضحكت الممرّضة العجوز عن فم فارغ من الأسنان وقالت: هذا ما يخيّل لكلّ مجنون يأتي إلينا لنعالجه. . . ثمّ أضافت: لو كنت في كامل قواك العقليّة لرأيت الازدحام الّذي يمتدّ بطوله من باب العيادة إلى الباب الخارجي للبناية! ثمّ تابعت وهي تلوي شفتها: ولكن يمكنكما أن تذهبا إلى الطّبيب الّذي يلاصق عيادتنا. هو أيضاً طبيب اختصاصه الأمراض النّفسيّة والعصبيّة، وعلاوة على ذلك فهو شقيق الطّبيب الّذي أعمل لديه. .

وشيّعتنا بسلام ممطوط، لئيم وقبيح.

* * *

دخلنا عيادة شقيق الطّبيب كما أشارت علينا الممرّضة العجوز، فاستقبلنا الطّبيب بصدريّته البيضاء على الباب بالتّرحاب وقال: أهلاً وسهلاً. كنت على يقين أنّكما ستأتيان إليّ. لقد أخبروني بأمركما!

ثمّ نظر إليّ وقال وهو يبتسم: أنا آسف أن أتحدّث كأنّكما تشكوان المرض. بينما الّذي أعرفه، والّذي وصلني، هو أنّك أنت. . . أليس كذلك؟

وقبل أن أهزّ رأسي، أجابت. . ن: نعم.

استمرّ الطّبيب في ترحيبه بنا: أهلاً وسهلاً، تفضّلا. اجلسا للحظات. .

جلسنا ونحن نتلفّت حولنا. نتأمّل العيادة. كانت خالية تماماً إلاّ من طاولة وجهاز عصبي من الجبس يقبع وراء زجاج منوّر بأشعّة كهربائيّة ساطعة. كرّر ترحيبه: أهلاً وسهلاً. . ثمّ سأل: ماذا تشربان. عرق، ويسكي، نبيذ؟ أو أي مشروب آخر يروق لكما!

حاولت أن أرفع رأسي وأسأل: ماذا، هل جئنا إلى عيادة طبيب أم إلى خمّارة؟ ضحك الطّبيب وقال: حلو. . حلو ما تفكّر به. طبعاً أنت في عيادة طبيب. ولكن مادمنا نعالج المرضى الّذين يشكون من جهازهم العصبيّ فمن الضّروري أن نهدّئ أعصابهم لا أن نوتّرها. لذا نلجأ، نحن، أثناء الضّيافة الّتي نقدّمها للمرضى إلى مثل الّذي ذكرته لكم من المشروبات. وأمّا القهوة والشّاي فهما من المنبّهات الّتي تتلف الأعصاب. قلت في نفسي: ما قاله الطّبيب صحيح مئة بالمئة.

وبعد أن انتهينا من شرب كأسين من الويكسي، سألني الطّبيب، وكان مايزال قابعاً وراء طاولته: قل لي، ممّ تشكو؟ ثمّ أضاف: رغم أنّهم حدّثوني عمّا تشكو منه بالتّفصيل. ولكن لابدّ لنا، معشر الأطبّاء، من أن نعتمد بالدّرجة الأولى على المعلومات الّتي يقدّمها المريض لنا بنفسه.

التفتُّ إلى. . ن وقلت لها: ماذا؟ هل سمعت ما سمعته أنا؟

أجابتني: نعم. .

ضحك الطّبيب وقال كأنّه يعلّق على ما تحدّثنا به: لا تخافوا. أو بالأحرى لا تخافا. . أو الأجدى في حالتنا هذه أن أقول، لا تَخَفْ. لأنّ أولئك الّذين أتحدّث عنهم هم الّذين ينشطون مع المريض في المرحلة الأولى من مرضه قبل أن يصل إلينا لمعالجته في المرحلة الثّانية. فأنت يا سيّد، قد وصلت إلى المرحلة الثّانية. . لذا أرجو أن تطمئن إلى هذه النّاحية تمام الاطمئنان.

سألت الطّبيب: ومن يكونون لك؟ أقرباء، أصدقاء، أم مجرّد معاونين لك؟

أجابني: كلّ ما ذكرت. .

وعندما شعر الطّبيب بالتباس جوابه عليّ، قام من وراء الطّاولة، ودار حولها ليصبح أمامي مباشرة وقال: أقصد أنّهم أقربائي وأصدقائي ومعاونون لي أيضاً!

سألت الطّبيب: هل خرجت معهم أنت أيضاً للقائي يوم تقدّموا منّي يريدون قتلي؟

ضحك وهو يربّت على كتفي وقال: لا أحد يريد أو يرغب في ذلك. إنّما الّذين كانوا يقومون به هو أن يخبروك بأن تزورني في هذه العيادة، لأنّ أعصابك تلفت من مصاعبك في الحياة..

والتفت الطبيب فجأة إلى.. ن وقال: أليست هذه الفتاة هي الّتي تحبّها؟

هززت رأسي بالإيجاب بعد أن أطرقت وجهي خجلاً. قال الطّبيب معلّقاً: لا بأس، إنّها فتاة جميلة. أنا أحسدك. وهي تستحق أن يجنّ الإنسان من أجلها. ولكنّك والحمدلله لم تصل إلى هذه المرحلة من مرضك. أنت في بداية المرحلة الثّانية من المرض... وعادة يتهيّأ فيها للمريض أمور غير واقعيّة، فإن لم يعالج الخلل الّذي يسبّب له تلك الرّؤى فيحتمل أن يجنّ.. لكنّي..

تابع: أراك شابّاً ذا عقل زينة تحسد عليه.. ثمّ تابع بعد أن عاد ليجلس وراء طاولته: سأسألك بعض الأسئلة، فأرجو أن تجيبني عليها بصدق وصراحة وبدون خجل أو حياء. لأنّ ذلك يجعل العلاج ناجعاً وسريعاً، وإلاّ فلن يتمّ العلاج بشكل جيّد. وهذا الأمر عادة يعوق عمل الطّبيب.. ثمّ تابع: هل اتّفقنا؟

أجبته: نعم..

ضحك وقال: سأبدأ بسؤال عادي جدّاً. ما هو اسمك؟

أجبته.

قال: أرجو أن تقدّم لي اسمك الثّلاثي.

أجبته. قال: عال.. رائع. سنّك؟

أجبته. قال: جميل. أنت في سنّ تكثر فيها الاضطرابات غير الخطرة. أنت مازلت صغيراً على الجنون.. ثمّ سأل: هل أنت متزوّج؟

أجبته. قال دون أن يرفع وجهه عن الأوراق الّتي يثبت عليها المعلومات الّتي أقدّمها له جواباً على أسئلته: من تكون؟ ـ وأشار إلى.. ن ـ أقصد من تكون بالنّسبة لك؟

أجبته. قال: رائع. ثمّ أضاف: أحسدك، فهي أشبه بملاك سماوي! ثمّ ضحك وتابع وهو يتأمّل.. ن ويغمز لي بعينه: ألا تعتقد أنّها قد توصلك إلى الجنون؟

أجبته: لا يهمّ مادامت إلى جانبي..

قال الطّبيب: جميل، جوابك مفحم.. ثمّ تابع: على ما يبدو أنت تحبّها كثيراً؟

أجبته بحماسة: حبّاً أشبه بالجنون.

ضحك الطّبيب وقال: رومانسيّتك هذه أشبه بحدّ الصّراط، إما أن تسقطك إلى الجنّة، أو تدفعك إلى الجحيم؟

التفت الطّبيب إلى.. ن وسألها: وأنت. هل توافقين على ما يقول؟

أجابته: هل ترى خلاف ذلك؟

ضحك الطّبيب وقال: لا أستطيع الجواب. لأنّني لا أعرفك إلاّ منذ دقائق.. ثمّ إنّ «هم» لم يقدّموا لي أيّة معلومات عنك. ولكن أتمنّى أن تمسكي بيده وتعبري معه الباب إلى الجنّة. وضحكنا نحن الثّلاثة.

قام الطّبيب كأنّه يوحي لنا بأنّ المقابلة قد انتهت. ثمّ قال: لديّ سؤال أخير..

قلت له: تفضّل..

قال: بِمَ تشعر عندما تتحدّث منتقداً الحكومة ورجالاتها الكبار؟

أجبته بعد أن شعرت أنّ وراء سؤاله هذا فخّاً ما: أنا لا أنتقد، لا الحكومة ولا رجالاتها الكبار أو الصّغار. أنا لا أهتم إلاّ بأمور حياتي الخاصّة فقط..

ضحك الطّبيب وقال بخبث: ولكن المعلومات الّتي لديّ تقول غير هذا. ثمّ ضحك ضحكة صاخبة وتابع، المهمّ. دعنا من هذه القضيّة. ثمّ أضاف: اليوم تكفي هذه المعلومات الأوّليّة. وهي، أقصد المعلومات، ستساعدهم في عملهم الأوّلي..

ثمّ طلب منّا، أنا و.. ن أن نقف وهو يقول: اذهبا إلى الغرفة الّتي أمامكما.. وتقدّم الطّبيب من الباب وأشار إلى حيث تقع الغرفة وتابع: هناك. لقد سبقتكما المعلومات. هناك سيكون الإجراء الأوّلي.. هيّا، هيّا..

وقفت أنظر إلى الطّبيب ثمّ سألته: أليست هذه عيادة شقيقك كما أخبرتنا الممرّضة عندما دخلناها قبل أن نأتي إليك؟

ضحك الطّبيب بصخب وقال: ألم نتّفق على أنّهم أصدقائي وأقربائي ومعاونون لي؟

سرنا أنا و.. ن بتردّد وحذر وصوت الطّبيب يعلو وراءنا: أسرعا.. أسرعا قبل أن يسبقكما مريض آخر..

* * *

أمام الباب المفتوح على مصراعيه قابلنا جداراً عارياً حتّى من الملاط، فعبرناه، ثمّ خطونا عبر دهليز منوّر بأضواء شاحبة.. ينفتح على قاعة واسعة، عارية إلاّ من سرير حديديّ بلا فراش وبضعة كراس حديديّة مزيّنة برسوم غريبة وممرّضة تشبه تلك الّتي استقبلتنا في العيادة الأولى تقول لنا دون أن ترفع رأسها عمّا تكتبه: تفضّلا. لقد وصلت المعلومات بالكامل. تفضّلا. لن تمرّ دقائق حتّى يأتوا... تفضّلا اجلسا..

تلفّتنا حولنا، على ماذا نجلس؟ ليس ثمّة ما يُجلس عليه! سمعنا العجوز تقول وهي مستمرّة في الكتابة: على الأرض. هي نظيفة البلاط.. لا تخافا، لن تتّسخ ثيابكما..

جلسنا مستندين إلى بعض. لقد شعرنا بالتّعب تماماً. ولكن ما إن تلامست أعضاؤنا حتّى نشبت فينا رغبات حاولنا كتمها أوّل الأمر... ولكن دون جدوى فيما بعد. فما كان منّي إلاّ أن طوّقت عنق.. ن وأوغلت لساني بين شفتيها كأنّ بي ظمأً أبديّاً إلى رضابها. ففعلت.. ن مثلي، ثمّ تمدّدنا على الأرض النّظيفة المضاءة بأضواء بعيدة، ولكنّها كافية لكي نميّز ما نقوم به.. وبعد أن هدأت أعصابنا

حاولنا النّوم. فوضعت.. ن رأسها على ساعدي وضمّتني إلى صدرها، وقبل أن نغرق في النّوم سمعت المرأة العجوز تقول: قفا. لقد جاؤوا.

وقفنا ننتظر الّذين جاؤوا كما أخبرتنا العجوز. دخل الواحد بعد الآخر. كان بعضهم قد تخطّى الثّمانين من العمر وبعضهم الآخر لم يتخطّ التّاسعة. جاؤوا كسلسلة مترابطة الحلقات وراء بعضهم، حلقة تشدّ الأخرى، ثمّ جلسوا على الكراسيّ المخصّصة لهم. وعندما التفتوا إلينا استغربنا! كنّا نعرفهم جميعاً. شيوخاً كانوا أم أطفالاً. فالتفتّ إلى.. ن في اللّحظة الّتي التفتت فيها إليّ وعلى وجهينا الدّهشة وكأنّ الواحد منّا يقول للآخر: أهؤلاء هم الّذين سيعالجونني؟ إنّهم سبب ممّا أعاني منه. فهم الّذين يطاردونني ليل نهار!

سمعنا ضحك أكبرهم سنّاً وهو يقول: لا تستغرب أن نكون معاونين للطّبيب؟

هتفت باحتجاج: ولكنّي أرى الطّبيب بينكم!

ضحك الطّفل وقال: هذا شقيقه. أقصد توأمه، فهو كما ترى، يشبهه إلى حدّ كبير. فهذا مختصّ في العلوم النّفسيّة وذاك الّذي قابلته مختصّ بالعلوم السّنيّة!

لم أعلّق. انتظرت من معاوني الطّبيب المختص بالعلوم النّفسيّة أن يفتتحوا الجلسة. رفع أكبرهم سنّاً وقال: لنبدأ، ثمّ تابع موضحاً، وخير ما نبدأ به هو قول: بسم الله الرحمن الرحيم.

ثمّ تابع وهو يثبّت نظّارته على أرنبة أنفه: ما بين أيدينا من الكشوف والأجوبة على أسئلة الطّبيب المعالج تدلّ على أنّك تشكو من عقدة الشّعور بالذّنب. ونرى أيضاً أنّ الّذين تشكو تجاههم من عقدة الذّنب هذه قد دوّن الطّبيب أسماءهم في الأوراق الّتي وصلت إلينا. وهم معنا في هذه القاعة. ثمّ تابع بعد أن بلع ريقه: لنبدأ بالسّؤال الأوّل: تفضّل يا سيّد اشرح لنا أسباب شعورك بعقدة الذّنب هذه؟

كنت حتّى هذه اللّحظة كالأطرش بالزفّة، كما يقول المثل الشّعبي، لا أفهم ما يقوله كبير المعاونين أو صغيرهم! أيّ ذنب يتحدّث عنه؟ ومن قال له: إنّي أشعر بالذّنب تجاه هذا الّذي أمامي أو ذاك؟

رفعت رأسي إليهم وقلت: أيّها السّادة هناك خطأ ما في الأوراق الّتي وصلتكم، فالأوراق الّتي بين أيديكم ليست لي، إنّها على ما يبدو لمريض آخر. هناك غلطة ما في الأمر؟

ضحك كبيرهم وغضب صغيرهم وقال آخر: أيّها السّيّد نحن لم نأت إلى هنا لنقضي أوقاتنا الثّمينة في المزاح الّذي بدأته. نحن هنا لمعالجتك. هذا إلى جانب أنّ هناك عشرات من أمثالك بانتظارنا، هم بحاجة أيضاً للمعالجة! نرجو أن لا تضيّع وقتنا الثّمين.

قلت لهم: أيّها السّادة، أنا لا أمزح. أنا أقول الجدّ.. لأنّي لم أصرّح للطّبيب المعالج أو غيره بأنّني أشعر بالذّنب تجاه أحد من النّاس. أنا جئت أطرح مشكلة ليست جديدة، وإنّما هي قديمة قدم الأرض والحياة الّتي عليها، منذ آدم وحوّاء. أنا طرحت للطّبيب ما مضمونه: أنّي أحبّ في هذه الدّنيا كثيراً من الأشياء، ومن ضمنها، هذه الّتي تقف إلى جانبي، وأكره أيضاً كثيراً من الأشياء.. ولكنّي لا أقدر أن أعلن هذا الحبّ، أو هذا الكره أمام النّاس، لأنّهم... أو لأنّكم تطاردونني. فأنا أعرفكم واحداً واحداً. كلّكم كنتم معنا عندما أعلنّا عن حبّنا، كلّكم هدّدتم.. ن بقتلها إن لم تكفّ عن حبّها لي..

قطعتُ كلامي عندما رأيت ابتسامة ساخرة هازئة على وجوههم كأنّها مطبوعة على قماش رديء. فتابعت بعد أن شعرت باليأس: لهذا أيّها السّادة، جئت إلى الطّبيب أطلب منه المساعدة.

هزّ كبيرهم رأسه وقال: لا بأس. نحن هنا لمساعدتك وكلّ ما تريد قوله لنا مدوّن أمامنا على الأوراق، ولكي نستطيع مساعدتك، يجب أن نعرف الملابسات الّتي تحيط بكما وأيضاً بالآخرين الّذين يرتبطون بهذا الشّكل أو ذاك بقضيّتك. تفضّل، قل لنا، هل حاولت في يوم من الأيّام شتم الحكومة؟

أجبته ببرودة، وأنا أقول لنفسي، على ما يبدو هنا بيت القصيد. قلت: كلاّ..

سأل: هل حاولت أن تشتم زوجك في حالة غضبك؟

أجبته: لست متزوّجاً..

علا صوت بكاء في القاعة من امرأة كانت جالسة معهم. هزّ كبيرهم رأسه وقال موجّهاً كلامه إلى المرأة الباكية: نرجو أن تكفّي عن إزعاجنا. هذه القاعة ليست مكاناً للبكاء.. رفع صغيرهم رأسه وقال: وختاماً، هل تريد أن توصي بشيء ما؟

أجبته بلامبالاة: كلاّ..

تابع صغيرهم موجّهاً كلامه لرفقائه: نعتقد أنّ بقيّة الأمور واضحة لنا تماماً عن المريض. لذا ـ والتفت إليّ ـ سنعطي أسلوب معالجتك للآنسة...

وأشار إلى الممرّضة العجوز. نرجو لك الشّفاء العاجل..

قام الجميع وخرجوا مثلما دخلوا واحداً بعد الآخر كالسّلسلة المترابطة الحلقات.

* * *

كانت الممرّضة العجوز واقفة تنتظر خروجهم. أمّا أنا فكنت أضمّ كتفيْ.. ن إلى صدري وأقبّل شعرها الطّويل..

التفتت المرأة العجوز إليّ وقالت: الآن أيّها السّيّد يمكننا أن نبدأ بمعالجتك، وإن شاء الله، لن تمرّ أيّام حتّى تكون في أحسن حال!

قالت ذلك وتقدّمتني إلى باب لم أره قبل الآن، كان أشبه بباب سرّيّ. وعندما أصبحنا على الطّرف الثّاني للباب وقفت أمام بحيرة كبيرة جدّاً. ثمّ سمعت الممرّضة العجوز تقول: تقدّم من البحيرة وادخلْ في مياهها ببطء. ثمّ اسبح حتّى نهايتها..

قلت لها: ولكنّي لا أعرف السّباحة؟

قالت: هذا الأمر لا يهمّني. كان عليك أن تتعلّم السّباحة قبل توجّهك إلى الطّبيب!

قلت: هذا يعني أنّكم تحاولون إغراقي..

قالت: نحن نحاول إنقاذك من المرض. ثم تابعتْ: اتبعني.. وأضافت موجّهة كلامها لـ.. ن: أمّا أنت يا صغيرتي فابتعدي عن

الشّاطئ. قفي هناك. إلى جانب تلك الشّجرة، لأنّ نجاح المعالجة متوقّف عليك.

وسارت الممرّضة العجوز أمامي حتّى اختفت في ماء البحيرة. سرتُ وراءها كالمضبوع لأغرق شيئاً فشيئاً في ماء البحيرة الأحمر.

أخذت أتخبّط باللّون الأحمر. أنّى تحرّكت أرى الأحمر. أنّى تلفّتّ يحيطني اللّون الأحمر. أنّى أدرت نظري يغرقني اللّون الأحمر بين طيّاته.

تنشّقت قليلاً من الهواء محاولاً أن أنقذ نفسي، أفتح فمي كسمكة على شاطئ البحيرة، العاري تحت شمس لاهبة. أريد أن ألتقط الهواء بشفتي اليابستين فلا أستطيع. كنت أخوض في الماء وأفقد الزّمن الّذي يربطني بالحياة. كنت أريد أن أصرخ بأعلى صوتي على.. ن. ولكن الماء كان يُحكم الطّوق عليّ.. وما إن بلغتْ قدمي شيئاً صلباً في القاع الّذي أخوض فيه حتّى رأيت نفسي في القمّة، رأيت على مستوى النّظر، فوق الماء، جزيرة ذهبيّة مسبوكة من خيوط الشّمس. شمس تصعد وهي تصدر رنيناً مكتوماً كرنين الذّهب المتساقط على أرض صلبة. حاولت أن أجد شيئاً لأمسك به، أنقذ نفسي من غرق محتم، فلا أجد سوى رأس يابس يطفو بين يديّ فأتركه مذعوراً. ثمّ أحاول أن أمدّ يدي إلى أطراف صخور الجزيرة ـ هكذا خيّل لي ـ الّتي اقتربت منها كقارب نجاة صغير فتحطّ يدي على اللّون الأحمر، تغوص أصابعي في الزّبد الأحمر. حاولت أن أفرك عيني بعد أن أحسست بالخيبة ففقدت توازني، سارعت إلى وضع يدي فوق سطح اللّون الأحمر الّذي أغرق فيه لأتوازن. أقف هنيهة أتماسك محاولاً أن ألتقط الهواء، فألتقطه جافّاً، ساخناً، يجرح أنفي وحلقي. هواء مشبع بحرارة ناريّة تشوي شفتي.. وفجأة أنتبه.. هناك على حافة صخور الجزيرة جسد امرأة عارية، أشبه بحوريّة بحر تنزل عن الجزيرة، تنزلق من بين صخورها، تغوص برأسها في اللّون الأحمر.. أفرح. أشعر بأنّ نجدة ما جاءت إليّ. أنسى الوضع الصّعب الّذي أنا فيه، أغيب عن الوعي، أنسى عطشي واختناقي وغرقي الّذي بات وشيكاً..

* * *

أسمع غناء بعيداً يحيط بالمرأة الحوريّة ـ كانت ذات شعر طويل ينسرح مع الماء إلى الوراء، ووجهها الّذي تزيّنه عينان خضراوان تغطّيه قطرات الماء الأحمر. أمّا بشرتها الخمريّة فتلمع تحت وهج الشّمس بلون عسلي. إنّها تسبح باتّجاهي.. ولكنّ المسافة الّتي بيني وبين حوريّة البحر كانت تزداد رغم سباحتها المستمرّة باتّجاهي. كان لا يقترب منّي سوى صوت غنائها، غناء دقيق كأنّه ينبع من فجاج صخور لمغاور غائبة في جوف اللّون الأحمر، أو مغاور بلّوريّة تطير مع الأثير، أو مغاور رخاميّة غائصة في الأعماق..

وأفتح فمي، أهتف بها: يا.. ويضيع صوتي، يختفي بقيّة ندائي. أشعر كأنّ ذهباً مصهوراً قد انسكب في جوفي عبر فتحتيْ أنفي وعيني وفمي الّذي فتحته على آخره لألتقط قليلاً من الهواء..

حاولت النّداء مرّة أخرى قبل أن تكفّ الفقاعات المائيّة عن انفجاراتها فوق رأسي على سطح البحيرة: يا...

واستيقظت وأنا مبلّل بالعرق. لأجد كلّ الّذين رأيتهم في منامي جالسين على طرفي السّرير يحدّقون إليّ بعيون ذابلة أكلها السّهر الطّويل. فاجتاحني الرّعب، زحفت إلى الوراء وأنا أهتف: النّجدة..

سرّ سقوط العامل رقم «٦٣٤»

سمير البرقاوي

السّكرتيرة:

كان نهاراً شاقّاً ومتعباً، فالهواتف لم تتوقّف عن الرّنين، والأوراق الواردة من جميع الأقسام بغرض مراجعة الإدارة أو الطّباعة والتّوقيع كانت أكثر من أي يوم آخر. ولهذا تناولت خلال أربع ساعات فقط خمسة فناجين قهوة وخمس عشرة سيجارة.

وليت الأمر توقّف عند هذا الحدّ؛ فالأمور السّيّئة حينما تحدث فهي كأنّما تتّفق على موعد واحد تتدافع فيه لتزيد الهموم والمتاعب.

فمنذ جلوسي صباحاً على الكرسي خلف المكتب، كنت قد اتّخذت قراري، بخصوص حسم علاقتي بالمدير: إمّا أن يأخذ علاقتنا بشكل جدّي تنتهي بالزّواج، أو أنّني سأنقطع عن العمل كلّياً هنا وأبحث عن عمل في شركة أخرى بعيداً عنه. ولهذا قمت بكتابة ورقة بذلك ووضعتُها على مكتبه داخل ظرف خاص، ليجدها أمامه إذا ما جاء في فترة الدّوام بعد ساعات الغداء. وعدت نحو حقيبتي. أخذتها ودخلت دورة المياه، وقفت أمام المرآة، قمت بترتيب شعري وأعدت تثبيت أحمر الشّفاه، ثمّ تناولت قنّينة العطر الّتي أمداني إيّاها ووضعت قليلاً منها على رسغي وملابسي وخرجت.

عندما سرت صوب الممرّ الّذي يُفضي إلى باب الخروج التّابع للإدارة، كان هناك عامل يقوم بإصلاح محوّل الكهرباء. ولعلّه اختار وقت الاستراحة حتّى لا يتذمّر الموظّفون من انقطاع التيّار الكهربائي عن مكيّفات الهواء. وفي الوقت الّذي كنت فيه أجتازه لمحته يترنّح ليسقط فجأة ممدّداً على الأرض أمامي. حمدت الله أنّه لم يسقط نحوي فيسقطني أرضاً معه، ليضعني في حرج لا ينقصني في هذا اليوم البالغ السّوء.

فتحت باب الخروج واستدعيت عمّال النّظافة طالبة منهم حمله